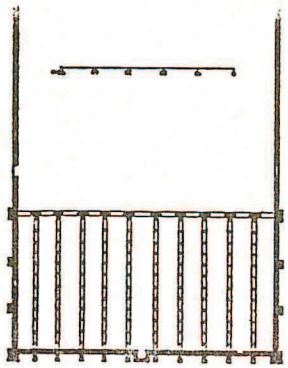

المرحلة الأولى من مسجد قرطبة الكبير (180 × 130 م). بناه الخليفة عبد الرحمن الأول عام 785 م.

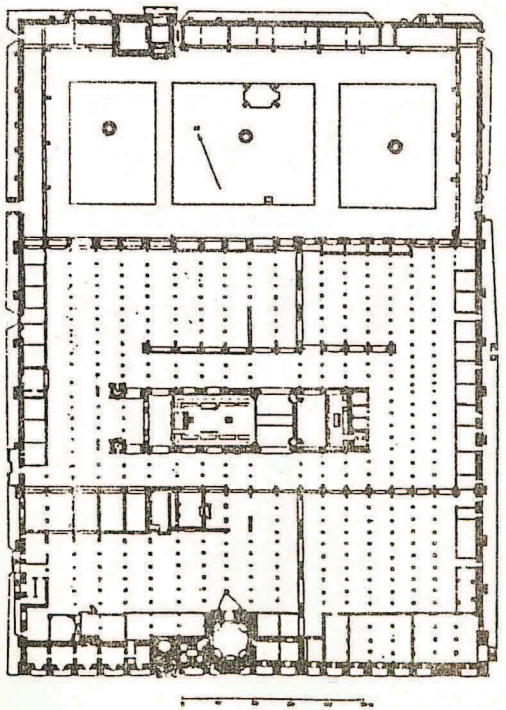

المخطط النهائي للمسجد في عام 1236. لاحظ في وشطه الشابيل. بناه سنت فرناند الذي حوّله الى كاتدرائية.

التاريخ الحديث

إرشاد الحيران في أمر الدّاي شعبان

مولاي بالحميسي

حكم الجزائر عدد كبير من الدايات ففيهم من طال عهده وفيهم من قصر وفيهم من وُفّق وفيهم من خاب حتى تداولت على البلاد أيام السعد وأيام النحس غير أن التاريخ سوّل للدّاي شعبان صفحات مليئة بجليل الأعمال وأبهر الانتصارات رغم قصر المدة وغدر الزمان[1].

ومما يستغرب أن المؤرخين[2] تجاهلوا هذه الشخصية الفذة أو اقتصروا على ذكر جانب منها حتى أن القارئ يبحث عبثا في مؤلفات هؤلاء فلا يجد إلا قشور لا تسمن أو تفاصيل لا تجدي أو أخبارا مبعثرة لا تعطي الصورة الحقيقية لهذا الحاكم الموقر والقائد المظفر بل أعجب بعضهم بما جاء في «الشهب المحرقة» لأحمد بن مصطفى برناز الذي ادّعى أن شعبان «رجل ظلوم يأخذ أموال الناس بالباطل... وله مثالب في جميع الدنيا... ويصادر الأموال ولا يشبع» ونفس المؤلف التونسي يقول إنه «رجل مليح ومهما قعد في دار السلطان للحكم لم يدع الصدق من يده وانه في أوقات فراغه يقرأ القرآن ويصوم الاثنين والخميس والثلاثة أشهر والأيام البيض» وانه «متقشف يلبس نعلا... ويفصل بين الناس والمصحف في يده...»

والحقيقة أن الداي شعبان أكبر من هذا كله، تتجلى عظمته من خلال مراحل

للملك فرنسا[3]، وهو لويس الرابع عشر آنذاك ـ وما تلقاه من أجوبة، ومن خلال رسائل القناصل المقيمين بالجزائر[4]. وعاصر ملوكا وسلاطين أمثال مولاي اسماعيل العلوي[5]، وملك اسبانيا شارل الثاني وغيرهم وكان العصر عصر الطموحات السياسية والتحديات العسكرية والنزاعات في مختلف القضايا الشيء الذي جعل الداي يبرهن على المقدرة والحكمة والشجاعة وبعد النظر حتى رغب الملوك والأمراء في تحالفه أو حياده...

1 ـ الداي شعبان والصراع الفرنسي البريطاني

كانت فرنسا ـ قبل ارتقاء شعبان على كرسي الجزائر ـ قد شنت غارات عديدة لقمع نشاط البحرية وقنبلت العاصمة سنة 1682 و 1683 و 1688 دون أن تحصل على نتيجة تذكر فتخلت بعد ذلك عن سياسة العصا وحذت حذو الانكليز والهولنديين ورغبت هي الأخرى في السلم والمصالحة وأرسلت الى الداي مبعوثين محنكين جاءوا بالاقتراحات المغرية والوعود المعسولة حتى إذا كان صيف 1689 أبرمت بين البلدين المعاهدة الشهيرة[6] التي اعترفت بالجزائر كدولة تتعامل معها فرنسا مباشرة أملا في حل المشاكل المثيرة لاستعمال القوة.

وفي أيام الداي شعبان بلغت البحرية الجزائرية الذروة في الهجوم وكسب الغنائم ومراقبة الملاحة في البحر الأبيض المتوسط، فرنا لها كل من الدول التي لها تجارة عبر البحار أو لها مخططات توسعية.

ومن بين التناقضات في موقف هذه الدول من حيوية البحرية الجزائرية التشكي والتنديد والوعد والوعيد من جهة والرغبة في أن يتواصل هذا النشاط ويستمر ويمتد خارج البحر الأبيض المتوسط.

فكانت كل من فرنسا وانكلترا تسعى بشتى الوسائل لجلب الداي الى صفّها لتحارب به منافسيها أو ليلازم الحياد اذا تعذر التحالف فكيف تفسر هذه السياسة المبنية على السّخط والإعجاب في آن واحد؟

إن الحروب والأزمات التي اصطدمت فيها دول أوروبا لم تُمكّن فرنسا أو هولندا أو انكلترا من التصر الفاحل والهيمنة الكاملة فكانت هاته الدول تعرض على الداي الاقتراحات المغرية لأن المصلحة تحول العدو بالأمس الى حليف اليوم حتى ولو

كرهت الكتيسة وأرعدت! فكان لويس الرابع عشر يكاتب شعبان داي المرة بعد الأخرى مُلِحاًفي طلبه. وجاءفي إحدى رسائله: «لقدتبين لنا أنه من الضرّوري إرسال السيد مارسيل[7] من جديد إلى الجزائر ليعرض عليكم أهمية الاسعافات التي تجدها سفن الجزائر في جميع موانئ مملكتنا وخاصة في مرسى بريست (Brest) إذا ما اتخذتم القرار لإرسالها الى المحيط. فاننا سنعطي الأوامر المدققة وسيشرح لكم السيد مارسيل التفاصيل. فإنها (السفن) ستُعامل نفس المعاملة التي تحظى بها سفننا الحربية. وبهذه الطريقة كونوا متيقنين أن الأرباح التي يحصّل عليها كلاعلانِ يخرج من الجزائر للغزو البحري ونظرا لغزارة الغنائم التي ستُؤخذ من الانكليز ستمنحكم تقديرا جديداً»[8].

وبعث الوزير سانيولي Seigneley برسالة مماثلة تحرّض على اعبان الحرب ضد الانكليز: «وسيجد الجزائريون في مختلف مراسي المملكة مأوىً مضمونا وحرية مطلقة لشراء عتاد المراكب والحبال والبضائع التي يحتاجون إليها وبالثمن الذي يشتري به الملك»[9] وان الغنائم ستودع في أماكن مأمونة في موانئ فرنسا.

وقدم الفرنسيون مقترحات أخرى لاقناع الداي شعبان، منها: حاجة الجزائريين الى تعويض العدد الكبير من الأسرى النصارى الذين ماتوا بسبب الطاعون، وضرورة تشغيل الميليشيا وكثرة العائدات المالية، ومنها كذلك التحالف الجزائري الفرنسي لطرد السفن الهولندية اذا ما دخلت الأبيض المتوسط وستُعْطى أوامر لقواد السفن الفرنسية بالانضمام الى السفن الجزائرية للاستيلاء عليها إذا ما قرر الداي اعلان الحرب على الانكليز[10].

وذهب قادة فرنسا الى أبعد من ذلك لدفع الداي شعبان، فادعوا أنهم يتلقون من انكلترا ومن هولندا أخبارا مفادها أن الانكليز يُعدّون أسطولا من ستة مراكب لشن الحرب على الجزائر وتسليط القرصنة عبيهم.. ولذا يُبَلّغ الداي والديوان حتى لا يفاجأوا[11].

وهناك وسيلة قد تحمل الداي على المبادرة المرجوة هي قضية الأسرى الجزائريين المعتقلين بفرنسا. وكانت انشغالات شعبان بها كبيرة. فاقتُرِحَ عليه إطلاق سراح 257 بدون فداء والآخرين «باليمن المتفق عليه في الماضي» وأضيف موضوع آخر لعله يغري الداي ذلك ان الانكليز لا يستطيعون شيئا ضد الجزائر لان قواهم مشلولة في

حروبهم ضد فرنسا وليس لهم سفينة واحدة يواجهون بها الجزائريين الذين لم يبق لهم الا هذه الفرصةلمضاعفة قوتهم في وقت قصير وتحويل مدينتهم إلى مدينةذات ثرْوة. وبما أن للمال جاذبية خاصّة فان جلالة الملك أذن لمبعوثه دوسولت أن يعد الدّاي «باثني عشر ألف أسير بعد المرحلة الأولى من الشروع في الحرب...»[12].

وأمام هذا النشاط والالحاح والاغراء من طرف فرنسا هل كان الانكليز متفرجين؟ إنهم استعملوا ـ هم الآخرون ـ كل ما في وسعهم لاستمالة شعبان داي ولإفشال معاهدة 1689 وتظهر حدّة المنافسة في الصراع القائم والحرب الباردة بين قنصلي البلدين المقيمين بالجزائر فتفانى كل واحد في إرخاء الداي والديوان. واستعمل الانكليز المؤامرة والسخاء في آن واحد.

فقد حاولوا ـ عبثا ـ إثارة الشغب في العاصمة وحرضوا الأميرال قارا مصطفى على الانقلاب سنة 1690 الا أن شعبان أبعد هذا الضابط وصُودرت أمواله ولم يُعرف مصيره[13]. كما حرضوا مولاي اسماعيل العلوي على مهاجمة الحدود الجزائرية فكان ما كان بينه وبين الداي شعبان.

وعمدوا من جهة أخرى الى المجاملة فعرضوا على الداي شعبان الأموال الطائلة والخدمات الأساسية أملا في اندلاع الحرب بين الجزائر وفرنسا غير أن القنصل الفرنسي بالجزائر كان لهم بالمرصاد[14].

وكانت سياستهم مرنة للغاية فكثيرا ما قارن الداي شعبان بين تعنت الفرنسيين ومرونة الانكليز. قال يوما للوزير الفرنسي بونشارترين Pontchartrain في رسالة: «إن الانكليز يظهرون لنا ودّاً كبيرا والسبب في أن تعاملهم بإحسان ليس الحب في مالهم ولا الخوف منهم... إن قائد الأسطول الانكليزي حمل بغتة الى الجزائر كل الأسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضته وأهداهم للديوان»[15].

2 ـ الداي شعبان ومأساة الأسرى الجزائريين

لقد انشغل جميع المسؤولين على الايالة بأمر الأسرى المحجوزين بأرض الكفر ولكنه لا يعرف داي من الدايات بذل في الموضوع ما بذله شعبان وعاناه من أجل لكِّ المقيّدين أو التخفيف مما حل بهم.

سقط في قبضة الأعداء ـ وما أكثرهم عدداً آنذاك وأشرسهم ـ جماعات من المسلمين وخاصة الجزائريين ـ والجزائر دار حرب ـ فرمت بهم الأقدار الى سجون أوروبا المسيحية. وتعود أسباب هاته المحن التي تعوّد المعارك البحرية بين الأساطيل والغارات على العاصمة أو على بعض الشواطئ الجزائرية مما أدّى الى اختطاف الأهالي وكذلك الى القبض بحرا على المسافرين من تجار وحجيج أو الى اقتحام مراكب الجزائر وهي راسية في بعض الموانئ الغربية.

وسيق الكل الى أسواق العبيد مثل ليفورن (Livourne) ونابلي (Naples) والبندقية (Venise) وجنوة (Gênes) ومالطة وساردينية وصقلية ومارسيليا وغيرها.

وكان هؤلاء يوزعون حسب حاجات أصحابهم فيذهب الصغار والنساء للأعمال المنزلية ويُعين بعض الكهول للعمل في الحقول أو المصانع على أن أصحاب القوة البدنية يساقون الى المجاديف لانهم أحسن طاقة للمراكب وأرخصها.

وخلافا لما كتبه الغربيون في موقف حكومة الجزائر على أنها لم تبال بمصير هته الطائفة وان الديوان لم يكن يوما مستعدا لدفع ثمن المفاداة[17] فقد تعين على قادة البلاد بذل الجهود للافراج عن إخوانهم في الملّة عملا بقوله ﷺ: «من فكّ أسيرا من أيدي الكفار، حرّم الله جسده على النار».

وطرح على شعبان داي ثلاث مسائل: دفن موتى المسلمين بأرض اعتقالهم وتحسين ظروف معيشتهم وكيفية اطلاق سراحهم.

أ ـ مقبرة مرسيليا.

من بين الاحتجاجات التي وردت على الداي والتي كانت تمس مشاعره وتثير قلقه وتسرع بتدخله قضية دفن المعتقلين بفرنسا. فكان لا بد أن يخصص مكان يُحوّل الى مقبرة مسوّرة.

ورغم كثرة المسائل التي لم تجد حلا بعد ابرام معاهدة 1689 فان شعبان داي تصدّى لهذه النقطة وكاتب ملك فرنسا يُذكره بما قامت به الحكومة هنا من تأسيس مقابر للنصارى بينما لا يوجد بمرسيليا شيء مماثل وانه عار أن تحفر خنادق بين الصخور على شاطئ البحر ثم أضاف يقول: «كان سفيرنا [محمد الأمين] بطولون

عندما توفي أحد أتباعه فعين حاكم تلك المدينة موضعا لدفنه. وعند الليل خرج بعض السكان وحفروا وأخرجوا الجثة وأشعلوا فيها النار وفي الغد شاع الخبر وذاع ورأى كل الناس وحتى الضباط هذه الجثة المحروقة .. وفي الجزائر يموت يوميا عشرون أسيرا فيدفنون في مقبرة حسب تقاليدهم وتقرأ كتبهم وتؤدى صلواتهم ... إن الشعوب التي تخشى الله لا تُقدم على مثل هذه الأفعال [الجارية في بلادكم]... وستعلم جلالتكم ان حكام طولون لم يوقفوا محرقي الجثة فحسب بل لم يتفضلوا حتى بالاطلاع على ما حدث!»[18]. وما هي إلا شهور حتى خُصّص للمسلمين مكان للدفن.

ب ـ ظروف المعاش

وصلت الداي أخبار عن تغذية الأسرى ولباسهم وإرهاقهم وإهانتهم عن طريق المكاتبات وتصريحات الفارين من السجون وأقوال التجار القادمين من مرسيليا فحزن لذلك وكاتب ملك فرنسا معاتبا: «ان الأسرى يشكون سوء معاملة الشراعين الذين يأخذون منهم بالقوة الأموال التي تتساقط بين أيديهم بفضل كدّهم كما يأخذ نوتيو الاشارة من كل واحد فلسا إذا أراد مغادرة المركب لحين. وان هؤلاء وأولئك وحتى العساكر ينهبون أسرانا ويضربونهم... وقد جيء الى الجزائر بقطع من الخبز الذي يقدم لهم في كل يوم ، فنسأل الله أن يحفظنا منه! فأنه يتعذر أكله لا على البشر فقط بل حتى على الحيوان... ثم إننا تلقينا كثيرا من الشكاوي تقول ان بسطاء الضباط يشاركون الأسرى في الجراية التي يمنحها الملك إياهم.. ارحموا هته الجماعة من البؤساء الذين يقتلهم الجوع والمجداف ألف مرة في اليوم!»[19].

وكانت هذه التصرفات والتعسفات تحمل شعبان داي الى كتابة الرسائل الطوال يدعو فيها الى تبديل القهر بالاحسان وقد ألف الناس هناك معاملة المسلمين بالغلظة والاجحاف والسطوة. لقد بلغه ذات يوم أن بعض الأسرى ما أن نُزعت القيود من أرجلهم حتى عادت وتكرر الأمر ثلاث مرات لاسباب واهية وغير مقبولة ولا زال المعذبون في جحيم[20].

وهذا خرق لمعاهدة 1689. ويقول بندها الرابع: «ولكي نصل الى احلال السلم حصل الاتفاق على مفادة حرة للأسرى من الجانبين وبقطع النظر عن الثمن الذي سيدفعه الباشا وقنصل ملك فرنسا»...

وفي انتظار تنفيذ المعاهدة لقي الداي شعبان جدارا من الحواجز وسوء النية وخبث الموظفين في طولون ومرسيليا. فأرسل سفيره محمد الأمين الذي أقام بفرنسا أكثر من ستة أشهر وفي طليعة مهمته أمر الأسرى.

ج ـ عودة الأسرى الجزائريين

لم يكن إطلاق سراحهم بالأمر الهين لأنهم كالنوا من أمهر الجدّافين ويصعب على البحرية الفرنسية التخلي عنهم. فترددت حكومته فيرساي بين احترام الاتفاق وبين مصلحة الملاحة. فكانت تلجأ الى المماطلة والكذب والوعود والتسويف ونذكر هنا بعض الأمثلة.

قام الأميرال تورفيل ـ رغم اتفاق 1689 ـ بعملية تدمير على رأس اثني عشر سفينة حربية قرب مضيق جبل طارق. ودافع رايس والي بما أمكن عن مركبه حتى غرق واستولى الفرنسيون على من كانوا فيه من النوتية وعندما طالب شعبان بعودتهم الى الجزائر رغم المبعوث الفرنسي المدعو مارسيل انهم غرقوا غير أن السفير محمد الأمين استطاع أن يبحث عنهم في طولون وأن يجدهم في سجونهم . ثم أن مارسيل هذا قدم الى الجزائر في منتصف ديسمبر سنة 1689 يقود 113 أسيرا جزائريا أفرج عنهم بموجب الاتفاق وبينما هو يتظاهر بالوفاء الصداقة يكتب المدعو فوفري (Vauvré) الى الوزير سانيولي (Seigneley) ما نصّه: «... يظهر أن من بينهم عددا قليلا نتأسف عليه...»[21] ومعنى ذلك أنهم أرسلوا العجزة والمعطوبين واحتفظوا بمن يفيدون. ولم يتجرع شعبان داي الخديعة فأرسل للملك جوابا يقول فيه: «نحيط جلالتكم علما بأن السبب الحقيقي الذي يجعل معاهدات السلم بينهما لا تدوم هو أن جلالتكم تصدر الأوامر الصارمة للافراج عن أسرى الجزائر الا أن الضباط المسؤولين على هؤلاء الأسرى ساؤوا لسفرائنا الذين أرسلوا لهذا الغرض وعليه فإن كثيرا من أهلينا بقوا منذ ذلك الوقت في أسرٍ رهيب وأفرج ـ مكانهم ـ عن أسرى أجانب ليسوا من الجزائر ومن طالبنا بهم ضُيّق عليهم أكثر فأكثر رغم موافقتكم على تسريحهم. وهكذا فإن الجزائريين أصدقاءكم يعانون منذ خمسة وعشرين عاما من حديدكم وسجونكم ويُداسون بالأقدام! وان عدم الوصول الى فكهم يحزن قلبنا وهذا هو السبب الذي ترك معاهدات السلم كل مرة لا تدوم طويلا

كما كان يجب[22].

ودفعت الحاجة الماسة الى هؤلاء النوتيين وتمسك البحرية الفرنسية بهم أن حكومة فيرساي رفضت لمفاداتهم مبالغ لم تخطر بالبال[23] خوفا من عدم وجود من يعوض السواعد المهرة.

ولم تثبط هذه المماطلة عزم الداي شعبان بل زادته حزما فخصص للأسرى الجزائريين اهتماما قل ما وجدناه عند غيره. قال يوما للوزير سانيولي: «لتعلم سعادتكم أن كل مرة تعكر فيها الجو بين رعايا المملكتين وساد بينهم سوء التفاهم يعود السبب في ذلك إلى أمر أسرى الجزائر» وقال لفوفري (Vauvré): «ان معاهدات السلم التي سبقت لم تنقض الا حبّاً في أسرانا»[24].

وكانت رغبة شعبان داي واضحة وشاملة تتلخص في «اطلاق سراح جميع الجزائريين من ترك ومن عرب الذين سجلت أسماؤهم في دفاتر الديوان سواء أكانوا من الميليشيا أو من رجال مركب محمد خوجة أو محمد الصغير أو والي رايس أو مصطفى رايس أو حسن رايس أو أيوب رايس وكذلك الافراج عن كل الذين قُبض عليهم بعد ابرام سلم 1689 وهم 28 من نوتية مركب قارا مصطفى و8 من الحجيج الذين وقعوا في الأسر قرب تونس وهم على متن مركب انكليزي و5 من بقايا طاقم ايوب رايس و60 من الذين أمر الملك بإطلاق سراحهم بمناسبة زيارة السفير الحاج جعفر والمبعوث محمد خوجة والذين لا زالوا محجوزين رغم أوامر الملك والذين أرسل الى الجزائر مكانهم أناس من دولة أخرى ولم يكن الداي في حاجة إليهم[25].

وأبدى شعبان داي رأيه في الموضوع وهو أن بقاء هؤلاء الأسرى ظلم لا يرضى به وألح على عودتهم جميعا حتى النوتيين الأحداث وسواء أكانوا بمرسيليا أو يجذفون بالمحيط أو يقيمون بمدينة روان (Rouen) وكان الداي على علم كامل بأحوال هؤلاء البؤساء فأرسل قائمة تحمل أسماءهم وألقابهم وعددهم وظروف وقوعهم في الأسر وما يميز كل واحد وسنّهم مما لا يترك لمن هناك فرصة للمناورة والكذب والمغالطة.

وطالت المفاوضات فلجأ شعبان الى التهديد والضغط. وها هو يوقف تنفيذ المعاهدة ومعنى ذلك استئناف الغزو البحري وغلق باب الافراج على الأسرى النصارى بالجزائر ويقول في رسالة للملك لويس الرابع عشر: «عندما يعود الينا طاقم مركب محمد خوجة ومحمد الصغير ونوتية والي رايس... لن يبقى عندنا واحد من بين المئات من الفرنسيين وستعرف أنه لا يسرنا الاحتفاظ بالأسرى[26].

ولم ينفع التهديد فضاعف الداي العمليات البحرية وكاتب الملك قائلا : «.. اذا كان الجزائريون ضروريين لكم فالنصارى أيضا ضروريون لنا والحمد لله وان جمهوريتنا اليوم قادرة على مفاداة ألف أسير في سبيل الله وليبق أسرانا عندكم وأسراكم عندنا وهذا لا يمنع من أن نبقى أصدقاء مع العلم بأن لديكم 300 من اخواننا على الأكثر وربما عليكم أن تفدوا أكثر من ستمائة هتا وستعلم أننا لسنا في حاجة الى أسرى»[27].

ورغم الصعوبات والجو المعادي لحل المشكل فان شعبان نجح في مساعيه الى حد بعيد بفضل علو منزلته وحاجة الدول لمهادنته. فكان يرسل الكتاب تلو الكتاب والقائمة بعد الأخرى وقلّما خاب ظنه! فما ان بعث رسالة في شأن ابن الشريف التونسي وهو «رجل يكن له الداي المحبة» حتى جاء جواب سانيولي سريعا بأن الملك «وافق على إطلاق سراح ابن الشريف وأرسل الأوامر اللازمة من الغلييرات فيما اذا كان على متنها». واهتم شعبان بانكليزي يُدعى شارشومين (Charchoumine) وكان قد وقع في قبضة الفرنسيين وحُمل الى طالون وكان قبل ذلك مكلفا بمهام من طرف الداي وقال الداي في طلبه ان اعتقاله يتسبب في ضياع أموال كثيرة للجمهورية [الجزائر] فبادر الوزير بونشارتدين بارضاء رغبة الداي وزفّ الخبر للسفير محمد الأمين. وتعددت المبادرات كلما أشار شعبان داي الى أحد الأسرى أو الى جماعة وهم الوزير الفرنسي الوحيد هو رضى الداي. ويقول في رسالة لمحمد الأمين وهو آنذاك بفرنسا «... أريد أن لا يبقى لدى الديوان أي موضوع يثير الشكوى فانني حملت الملك على أن يهدي للداي 8 أسرى يختارهم بنفسه وجلالة الملك يأمر باطلاقهم وسيحمل القائمة متصرف الباستيون [السد دوسولت] الذي آمره بالعبور الى الجزائر بصحبتك[28].

وكان دوسولت هذا كلّما قدم الى الجزائر قاد جماعة من الأسرى حتى تعبّد بهذه المبادرة طريق المفاوضات.

وكانت زيارته في أواخر سنة 1692 عبارة عن تدفق الأسرى الجزائريين منهم من نصّت عليهم اتفاقية 1689 ومنهم من قبض عليه في البحر ومنهم من عوّض الأسرى النصارى الذين فرّوا من الجزائر بتواطئ مع ربّان هذا المركب الفرنسي أو

ذاك ! «اعتبارا لشخصية الداي واحتراما لإيالة الجزائر»[29] وكاتب السيد روبير مسؤول البحرية بطولون سنة 1693 رسالة الى قنصل فرنسا بتونس يقول: «أمرت بركوب 13 جزائريا على متن المركب «لاموتين» (La Mutine) رمتهم صدف البحر الى هنا وذلك ان قرصانا من مدينة سان مالو (Saint Malo) استولى على مركب انكليزي كان بدوره قد استولى على مركب جزائري وكان هؤلاء على متنه وادّعوا أنهم من الجزائر ولم يستطع القرصان هذا أن يثبت أن كانوا فعلا من الجزائر أو من سلا فأرسى بمدينة نانت (Nantes) ثم أبحر قاصدا مرسيليا حيث أدلى بتصريح لموظفي مصلحة الصحة ونواب الغرفة التجارية الذين تحققوا من هوية الجماعة ... فاستقدمت هؤلاء الجزائريين وقررت ارسالهم الى بلادهم في أمن ولذا أبعث بهم اليك وأرجو أن تجد لهم في أقرب وقت ما يحملهم الى الجزائر وان تزودهم بالأغذية الضرورية لسفرهم... وأخبركم أنه لا داعي لاعطاء هؤلاء الجزائريين أية فرصة للاحتجاج على مثل هاته اللقاءات [البحرية] وابذل ما في وسعك لارسالهم راضين بمدّهم المؤن والسفر وهذا ما أوصيك به بصفة خاصة»[30].

وعندما اندلعت حرب الداي مع تونس سنة 1694 وقام قنصل فرنسا بتزويد الباي بالسلاح والعتاد غضب شعبان وعاتب الحكومة الفرنسية ، أسرع الملك لمحو هذا الخطأ السياسي «مراعاة لشخص الداي ولجمهورية الجزائر» بارسال 17 جزائريا كانوا موزعين على مختلف سفنه و3 من الذين فرّوا من جنوة و11 كانوا جدّافين على متن مركب جنوي سيق الى طولون[31].

3 ـ سعة الإحسان عند الدّاي شعبان

ولم يكن اطلاق سراح المسجونين من طرف واحد. لقد قامت حكومة الجزائر المرة بعد الأخرى بالافراج عن عدد من النصارى[32].

وعندما بلغ شعبان خبر الجزائريين اللّذين فرّا من اسبانيا وقبض عليهما في مرسيليا راسل الملك لويس الرابع عشر مطالبا بتحريرهما ومذكرا أنه لم تمر سنة حتى أفرج هنا على خمسين أو ستين فرنسيا كان القراصنة المعادين لفرنسا قد قبضوا عليهم، وما أن تدخل القنصل حتى أرسلوا الى طولون[33] ويذكر شعبان داي بعمل جدير بالذكر والشكر. قال للوزير بونشارترين «لقد أفرجنا على 285 بحّار أقوياء من

ملاكي السفن ورؤسائها وعمال قادرين على أن يقدموا لنا خدمات كبيرة وأرسلناهم»[34].

وإذا خرجنا من قضايا الأسر وتعقيداته ومآسيه وجدنا الداي شعبان معداً دائما لإغاثة المغبون أو المحروم. ولا نستطيع أن نسرد في هذه الصفحات أعمال الداي الخيرية ونقتصر على مثالين يبرزان شخصية الرجل.

رغم تصلب مواقف اسبانيا وتعنتها وغاراتها على العاصمة في القرن السادس عشر واحتلالها لوهران والمرسى الكبير فان الداي شعبان قَبِلَ مساعدة النصارى بالجزائر واسعافهم وخاصة الفقراء منهم. ولهذا الغرض منح الأب جوزيف كويرالت (J. Queralt) مدير مستشفيات العاصمة امتيازا لم يسبق له نظير والهدف منه تقديم المساعدة وشفاء المرضى لفقراء النصارى. وكانت المؤسسة في حاجة الى أموال فإن الداي قرر أن كل مركب من مراكب النصارى يرسو بالعاصمة يدفع أربع ريالات للأب وان كل أسير يطلق سراحه يدفع ريالين من الفضة لنفس المسؤول[35]. كما أعفيت المستشفيات من دفع بعض الضرائب.

ولبى شعبان نداء كل من استغاث به وهذا ما وقع ليهودي بإيطاليا. جاء في رسالة بعث بها الداي إلى ملك فرنسا: «لنا الأمل في أن جلالتكم ستنزل عند رغبتنا وتكتب لدوق مدينة فلورانس لصالح المدعو اسحاق داوود فرناديز اليهودي لكي يسمح له بالذهاب هو وعائلته الى ليفورن والأقامة بها فقد طرد منها بسبب وشاية أعدائه»... وقد حصل اليهودي هذا على ما كان يصبو اليه.

4 ـ المتآمرون من البلدان المجاورة

لم يكن شعبان مشغولا بشؤون البحر وحدها وبمواجهة امراء أوروبا بل اضطر الى افشال المؤمرات غرب الإيالة وشرقها.

أ ـ تحدي مولاي اسماعيل العلوي

اغتنم السلطان المغربي[37] تأزم الوضع الداخلي بالجزائر بعد الهجومات الفرنسية وبعد قيام الميليشيا على الحاج حسين باشا فأغار على غرب البلاد[38] وقد حرضه على ذلك الانكليز الذين أقلقتهم معاهدة 1689. وبمجرد ما أقدم السلطان على الحرب سنة 1692 وكان معظم جيش الجزائر مشغولا في تونس. نهض الداي

شعبان وفي ظرف وقت قصير جمع الجموع وزحف نحو العدو بحرا وبرا[39]

وجاء في رسالة الداي الى الوزير الفرنسي بونشارترين ما نصه:

«لقد قصد القلعة التي هي لنا (كريستل قرب وهران) 500 لواء مع 10.000 من أشجع جنودنا تصحيهم أفتك المدافع وكل الأسلحة والذخائر والمؤن.. وعن طريق البر أرسلنا 5000 من الفرسان و 30.000 من الأهالي بقيادة أمرائهم ولن يمضي عشرون يوما حتى أخرج أنا والتحق بالجيش»[40].

وقد سمع مولاي اسماعيل بما يعده الداي وقبل أن يتحرى هذا الأخير أرسل السلطان الرسائل يطلب الأمان والعفو غير أن شعبان لم يصغ لنداء الاستعطاف «لأن هذا العاهل لم يتقيد يوما بوعد ولم يف بعهد» كما جاء في الرسالة الى الوزير الفرنسي وسارع شعبان للقتال وكان أول لقاء في 4 جويلية على الضفة الشمالية من الملوية، ودار رحى الحرب على الغزاة وانهزم مولاي اسماعيل وتقهقر جيشه وواصل الداي زحفه الى أن اقترب من فاس فوجد في طريقه جيشا آخر بقيادة السلطان نفسه وكاد الاصطدام ينفجر لولا تدخل علماء الجانبين، فهدأ الجو وحصل الاتفاق وتعهد السلطان باحترام الحدود[41] ثم ذهبت خيمة بين الجمعين ووصل اليها مولاي اسماعيل «ويداه مكتوفتان وراء ظهره اشعارا بالاستسلام وقبل الأرض ثلاث مرات أمام الداي وأضاف قائلا: أنت الخنجر وأنا اللحم فاقطع ان شئت..» غير ان الداي امتنع من كل اذاية ولم ينل السلطان أي مكروه[42].

ثم أرسل السلطان الى الجزائر ولده مولاي عبد الملك يرافقه كاتبه وقائده ومفتيه وعدد من التجار(؟) وجماعة أخرى بلغ بها الوفد 120 شخصية لابرام الصلح[43].

والجدير بالذكر ان شعبان عندما عاد الى العاصمة وسط غنائم كثيرة تسابق القناصل في الخروج للقائه وتهنئته بالنصر وكانت المنافسة حادة بين قنصل فرنسا وقنصل انكلترا وأراد كل منهما أن يسبق الآخر ومعه أكبر عدد من أعيان جاليته وخادع كل منهما الآخر وكانت الحيلة لصالح القنصل لومير...

وما مرت سنتان حتى أعد مولاي اسماعيل غارة أخرى ولم يهضم مرارة الهزيمة السابقة وكرّ من جديد على غرب الايالة مغتنما حرب شعبان داي مع محمد باي تونس. وكان اتفاق قد حصل بين سلطان المغرب وصاحب تونس على مهاجمة

الجزائر. وقام شعبان داي مرة أخرى وألحق بمولاي اسماعيل هزيمة جديدة سنة 1694.

ومن جهة أخرى كان الوضع جد متأزم مع إيالة تونس وكان الصراع الداخلي في هذا البلد قد أدى الى ظهور مترشحين متنافسين على السلطة وكان شعبان داي يؤيد محمد بن شاكر على منافسه محمد باي فاندلعت الحرب مرة أخرى سنة 1689 وهزم محمد باي ودخلت جيوش الجزائر تونس ونُصّب ابن شاكر وفرّ محمد باي، غير أنه جمع جموعه وما إن عاد الجزائريون الى بلادهم حتى استولى محمد باي على الحكم ولم ينس الداي هذا التحدي.

وفي سنة 1694 شن شعبان الحملة على صاحب تونس قصد ارجاع ابن شاكر على كرسي الامارة ولمعاقبة محمد باي[44] بأمر من السلطان العثماني[45].

وكما هي العادة عند شعبان داي فانه هيأ جيشا وأرسل بعضه بحرا وبعضه برا ووصل القسم الأول الى عنابة على متن 10 مراكب حربية يحمل الرحال والعتاد والذخائر والخيام كما وصل الى ميناء عنابة أربع سفن من طرابلس مشحونة بلوازم الحرب[46]، وتم الزحف على تونس وبدأ الحصار وطال ثلاثة أشهر ونزل على المدينة مطر من القنابل دمّر أجزاء كبيرة منها وخرج منها محمد باي ليلا والتحق بالقيروان ودخل شعبان تونس وسط هتافات وتهاني تتدفق عليه ولم تتخلف الجالية الفرنسية عن ذلك[47].

وكادت الحرب مع تونس تتسبب في أزمة بين الجزائر وفرنسا. فان طول مدة الحصار يرجع الى المعونة التي قدّمها القنصل الفرنسي بتونس الى محمد باي من أسلحة وغيرها ولم يسكت شعبان داي على هذا الموضوع وندد به في رسائل عديدة للحكومة الفرنسية. قال في احداها: «بمجرد ما وصلنا أمام العاصمة التونسية علمنا أن ستة مراكب فرنسية قدمت من طولون وأرست بخلق الوادي وأنزلت كمية من البارود والقنابل لفائدة المجرم محمد باي ليحاربنا... ونخبركم بأننا عندما استولينا على أسوار المدينة وجدنا مائة قنطار من البارود وألف كُرة مدفع جاءت بها سفن فرنسية ونفكر الآن في استعمالها في الألغام التي ستحطم القصبة وهكذا لكم منا كل الشكر فإنكم أثلجتم قلوب جنودنا وقد قصدتم إذايتهم[48]. ورغم هذا المدد فإن الداي شعبان انتصر على خصمه وأعاد ابن شاكر الى منصبه قبل أن يعود الى الجزائر حيث

وصل في 16 فيفري 1695.

5 ـ سمعة الجزائر في عهد الداي شعبان

رغم قصر المدة ورغم الزوابع التي هزت البلاد فقد بلغ شعبان داي من الجاه والقوة والهيبة والاحترام ما جعله يُزار ويستشار ويستنجد به ويُعوّل عليه في أمهات القضايا الدولية.

فما ان استتب له الأمر وأحرز على انتصارات أولية على مولاي اسماعيل وقاوم الحزب المعادي للجزائر في فرنسا حتى اتجهت نحوه الأنظار.

قدم مركب من طرابلس يحمل مبعوثا مصحوبا بهدايا ثمينة ويرجو بها صاحبها من شعبان داي الحماية من صاحب تونس الذي هاجم جاره وعاث في البلاد (وكان شعبان يومئذ مشغولا في المغرب الأقصى)[49].

وفي سنة 1693 توسط شعبان في النزاع بين فرنسا وطرابلس لانهاء الأزمة وفي هذا الشأن حلّ بالجزائر مبعوث من الباي ومعه أوامر مفادها اتباع الخطة والنصائح التي يقدمها الداي في كل ما يتعلق بالمفاوضات مع فرنسا[50]، وعندما تناسى ملك فرنسا هذا الدور ذكّره شعبان داي قائلا: «ان السلم مع طرابلس تحققت بفضلنا اعتبارا لما بيننا من صداقة ولم يكن هذا بمكن إلا بعد أن تلقى قادة طرابلس رسائل من ديواننا وزيادة على هذا فاننا سواء في الجزائر أو في تونس أو في طرابلس فقد تدخلنا بنجاح في اطلاق سراح الأسرى الفرنسيين عدة مرات»[51].

وعندما تحقق انتصار شعبان على جاريْه كتب للويس الرابع عشر: «ان الجزائر وطرابلس وتونس تخضع من الآن لأوامرنا وستخضع لسلطة واحدة ولن تبقى جمهوريات متفرقة مثل ما كانت عليه في السابق وقد وحدنا بين الايالات الثلاث[52]» وفي رسالة أخرى أكد حقيقة الوحدة وقال: «ان الجزائر وتونس وطرابلس ما هي الآن الا دولة واحدة ولنا القيادة منذ ست سنوات[53]».. وقد عيّن السلطان [العثماني] أميرا وقائدا عاما على الجمهوريات الثلاث ونائبه في المملكة.

وكانت فرنسا تزيد في ملاطفتها للداي ومجاملتها له عندما ظهر من شعبان ما ظهر من قوة في الشخصية وحدة في النظر حتى أوصى دي لا كروا (Petis de la

Croix) بأن «السلم مع الجزائر ضرورة لفرنسا تمنع القراصنة من نهب مراكبنا التجارية وتحملهم على تخريب تجارة الانكليز والهولنديين...»[54].

وكان لشعبان تصوّر ونظر في الدولة وصاحبها. فعندما أبرمت معاهدة 1689 وطال تنفيذها بسبب المماطلة والمعارضة والعصيان من طرف موظفين بفرنسا كتب الداي للملك لويس الرابع عشر يقول: «هنا في هذا البلد رجل واحد يحكم ويأمر وبفرنسا مائة رجل يتصرفون وكل واحد يصدر أوامره ويتصرف حسب أهوائه» وعندما قلق الداي من وقاحة المدعو فوفري (Vauvré) وهو موظف بسيط بمقاطعة بروفانس (Provence) ندّد به الداي وأبدى غضبه كما ند· بمواقف المدعو مارسيل الذي «له مهام معينة ومع هذا تدخل في شؤون سفيرنا ومنع أيا كان من الاقتراب منه وقيل انه ترك يفعل هكذا احتراما لمتصرف طولون ولكن الجزائر أولى بهذا الاحترام. لا والله! إن ديواننا لن ينتظر كلاما في شأن السلم الا من الملك أو من وزيره مباشرة وليس من عادات ديواننا التفاوض في قضية السلم مع متصرف بطولون ولسنا مستعدين لان نتلقى أوامر منه وما هو الا عامل بدار الصناعة وخادم حصون ونحن أدرى منك بأصله وولادته[55].

وكان شعبان بعيد النظر فقد أدرك ما للجزائر من دور في العلاقات الخارجية وأبدى بذلك للوزير الفرنسي قائلا: «على الجزائر يُعوّل السلطان العثماني في المحافظة على كامل مملكته بافريقيا» وفي مناسبة أخرى قال وما أصحه من قول. «اللهم احفظ الجزائر من كل خطر... فانه اذا ما حدث ادنى انهيار للجزائر فإن أيالات تونس وطرابلس ومصر تفلت بعد ذلك بقليل من أيدي سلاطين بني عثمان»[56].

الهوامش

التقاييد

(1) قاد الجزائر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بطلان قلّ ما جاد بهما الدهر: شعبان آغا (1661 ـ 1665) الذي تصدّى للحملة الفرنسية على جيجل سنة 1664 وألحق بالمغيرين أشنع الهزائم وأفدح الخسائر، والثاني شعبان داي وهو موضوع هذه الصفحات والذي خلف حسين باشا بعد نكبته في جانفي 1689 وبقي على رأس الإيالة الى صيف 1695.

(2) من ابن ميمون صاحب التحفة المرضية الى توفيق المدني في كتابه حرب الثلاثمائة سنة!.

(3) راجع :

Plantet (E.); Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France, t I 1579—1700, pp. 174--490.

(4) Grammont (H de), correspondance des consuls... pp. 2-39.

خاصة القنصل الفرنسي رُوني لومير René Lemaire الذي مكث ببلادنا من 1690 الى 1697.

(5) حكم من 16 الى 1717.

(6) يرجد النص الأصلي باللغتين بباريس (دار الأرشيف الوطني تحت رقم 322--BIII) وقد درسه وعلّق عليه بربروقجير Berbrugger أنظر المجلة الافريقية Revue Africaine سنة 1863 ص 431 ـ 441.

(7) مفاوض في معهدة 1689.

(8) رسالة الملك الى الداي بتاريخ 30 أكتوبر 1689. أنظر:

A.N. Affaires Etrangères, consulat d'Alger.
Plantet, Correspondance des Deys... I, 177--178.

(9) انظر :

A. N. Aff. Etrangères, Ordres du Roi et Dépêches, Affaires d'Alger, 1691.

(10) انظر :

A. AN. A. E. B2 -- 87 (1692).

(11) رسالة الى السيد دوسولت المبعوث الفرنسي بتاريخ 1691/12/29.

(12) انظر:

AN. Aff. E. B3 93 p. 116 lettre de 1693.

(13) راجع بالغرفة التجارية بمرسيليا سنة 1350 رسالة القنصل لومير بـ 1690/12/11.

(14) راجع رسالته بـ 12ـ4ـ1690 بالمجلة الافريقية 1882 ص 136.

(15) انظر : رسالة الداي الى هذا الوزير بـ 29ـ10ـ1691.
(Plantet, Correspondance... I, 356.)

(16) ستصدر لنا عن قريب ان شاء الله دراسة وافية في موضوع الأسرى الجزائريين في العهد العثماني.

(17) انظر :

Venture de Paradis, notes sur Alger au XVIIIe siècle Revue Africaine, 1896, p. 38.

(18) أرشيف البحرية رقم :

B7 - 49, Levant et Barbarie. Lettre du 23 juillet 1691.

(19) المصدر نفسه.

(20) رسالة شعبان الى الوزير بونشارترين Pontchartrain بـ 24ـ3ـ1692 ، أنظر:

Plantet, Correspondance..., I, 377,

(21) راجع الرسالة في: Plantet, Correspondance, I, 185

(22) رسالة شعبان الى لويس الرابع عشر بتاريخ 10ـ5ـ1690.

Plantet, Correspondance.. I, 230 et 239.

(23) أنظر : Teissier (O.,) Visite à l'Arsenal de Toulon, p. 127.

(24) راجع الرسالة بتاريخ 10ـ5ـ1690. Plantet, Correspondance, I, 244.

(25) من طلب الديوان الى لويس الرابع عشر والذي قدمه للعاهل السفير محمد الأمين عند استقباله يوم 26 جولية 1690.

(26) رقالته الى ملك فرنسا بتاريخ 23 جولية 1691.

(27) أرشيف البحرية: Marine B7 214- 215. Lettre du 23 juillet 1691.

(28) رسالة بونشارترين الى محمد الأمين بتاريخ 9ـ12ـ1690 راجع:

Plantet, Correspondance, I, 293.

(29) رسالة الوزير الى الداي بتاريخ 24ـ12ـ1692.

(30) أرشيف الغرفة التجارية C - 34. Lettre du 21 oct. 1693

(31) أرشيف باريس : B 2 - 102 (1694)

(32) يذمر الأب هيرولت Hérault أن على بتشين قبل وفاته أعتق أعلاجه وخدمه السود وأربعة عشر نصرانيا.
(R. OMM. 1 - 1975 p. 34

(33) رسالة شعبان داي الى لويس الرابع عشر بتاريخ 23 جولية 1691.
(plantet, Correspondance... I, 311).

(34) رسالة شعبان الى نفس الوزير بـ 24 مارس 1692.
(Plantet, Correspondance... I, 375).

(35) يوجد نص الاتفاقية باللغتين الاسبانية والعثمانية بأرشيف إكس (Aix) تحت رقم 6/56 a 1 بتاريخ 5ـ1ـ1694 (خمس صفحات).

(36) الرسالة في Correspondance, I, 175.

(37) حكم من 1672 الى 1717.

(38) لم تكن هذه الغارة بالأولى وقد سبقتها غارات عديدة نهبت فيها أموال القبائل المجاورة للحدود.

(39) كتاب تشريفات ص 9ـ10.

(40) رسالة بتاريخ 4 مارس 1692 (Plantet, I,380ـ381) وفعلا غادر الداي العاصمة في 6 أفريل ولم يعد اليها الا في 11 أوت 1692.

(41) أنظر :

Grammont (H. de), Un épisode diplomatique à Alger au XVIIIè siècle, R.A. 1882, pp. 130--138.

(42) أنظر : Galibert (L.), L'Algérie ancienne et moderne, p. 234.

(43) انظر رسالة القنصل الفرنسي لومير الى نواب الغرفة التجارية بتاريخ ،أكتوبر 1692.
(A.CC.M série AA 470.).

(44) وقيل كذلك ان شعبان استنكر سياسة محمد باي الذي حرّض قبائل الحدود على الانضمام اليه والذي استولى على تراب هو للجزائر كما ساتولى على أجزاء من إيالة طرابلس (تشريفات ص 9).

(45) انظر رسالة الداي الى الوزير بونشارترين بتاريخ 1_9_1694.
(Plantet, Correspondance, I, 415).

(46) تشريفات ص 10.

(47) أنظر:
Rousseau, Annales tunisiennes, pp. 74--76.

(48) رسالة شعبان داي الى الوزير الفرنسي بتاريخ 1_9_1694.
(Plantet, correspondance, I, 437).

كان القنصل يرجو من هذه المساعدة مراعاة المصالح الفرنسية بالرأس الأسود
(Cap. Nègre)

41) أنظر :
De Grammont, Histoire d'Alger... p. 28.

(50) أرشيف باريس رقم B2 93 (1693).

(51) رسالة شعبان الى الوزير الفرنسي بتاريخ 1_9_1693.
(Plantet, Correspondance, I, 455)

(52) رسالة الداي الى الملك بتاريخ 1_9_1694.

(53) رسالة الداي الى الملك بتاريخ 6_3_1695.

(54) أنظر :
Petis de La Croix, Mémoire sur Alger, 1695.
(publié par M. Emerit, A.I.E.O. Alger 1953, p. 20).

(55) رسالة من شعبان داي الى الوزير بوشنارترين أنظر :
Plantet, Correspondance, I. 320.

(56) وسقطت الجزائر سنة 1830 فتبعتها تونس سنة 1881 ومصر 1882 وطرابلس 1911.

العلاقة بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانعكاسها على المقاومة في أوائل عهد الاحتلال

ناصر الدين سعيدوني

تكمن أهمية العلاقة بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي في كونها تشكل الحلقة المفقودة في الأحداث التي تميزت بها السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي، وتمثل في نفس الوقت نقطة الضعف في المقاومة الجزائرية، كما أنها في حد ذاتها تعطي صورة حقيقية ومثالا حيا لواقع العلاقات بين الزعماء المسلمين وأسلوبهم في التصدي للغزو الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

فضلا على أن العلاقة بين قطبي المقاومة في شرق البلاد وغربها قد تثير النقاش وتدفع الجيل الحاضر من الجزائريين الى التساؤل: لماذا لم تنسق الجهود وتوحد الصفوف للوقوف في وجه العدو المشترك، وهذه التساؤلات ـ مع وجاهتها ـ ان لم تجد اجابة من أقلام جزائرية تتجاوب والمصلحة الوطنية وتتماشى والحقيقة التاريخية، فانها قد تدفع الكتاب الأجانب والمؤرخين الأوروبيين الى عرضها حسب ميولهم واتجاهاتهم التي قد تتنافى وواقع الأحداث وطبيعة المجتمع الجزائري.

وانطلاقا من هذه الاعتبارات سوف نحاول في هذا البحث التركيز على تفسير الأحداث واستخلاص النتائج من المعلومات المتوفرة والوثائق المنشورة، مما يبرز بحثنا هذا في شكل عرض تحليلي أكثر منه دراسة توثيقية، وذلك رغبة منا في التوصل قدر المستطاع الى تكوين فكرة صحيحة لطبيعة العلاقة بين زعيمي المقاومة في أوائل